صورة الرسول(صلّى الله عليه وآله) في خطب العصر العباسي

الباحثة: رنا طارق عبيّس

أ د. علي كاظم محمد المصلاوي

كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة كربلاء

ملخص البحث:

تأتي أهميّة الموضوع **(صورة الرسول**(صلّى الله عليه وآله)**، في خطب العصر العباسي)** من تسليطها الضوء على حقبة مهمّة من حقب النثر العربي، ومما أخذ بأيدينا لهذه الدراسة أسباب منها: جعل صورة الرسول(صلّى الله عليه وآله)، أساسًا في التعامل مع النص النثري في العصر العباسي لم تضطلع به دراسة أكاديميّة شاملة غايتها الكشف عن صورته(صلّى الله عليه وآله)، لاسيما في جانب إظهارها لدى الحُكام العباسيين وأساليبهم المُبطنة في الكشف عن الحقائق المزيفة التي أرادوا خداع المجتمع من خلالها، فقد توجّه البحث في هذا الجانب وجهة مختلفة أثبت فيها ما استبطنته نصوصهم لذا جاءت هذه الدراسة لتوضّح جانباً طالما تجنبه العديد ممن ارتادوا ميدان النثر العباسي لاسيما خطب الخلفاء.

Research Summary:

The importance of the topic (the image of the Messenger (may God's prayers and peace be upon him and his family) in the sermons of the Abbasid era) comes from its shedding light on an important era of Arabic prose. Among the reasons that inspired us for this study are: making the image of the Messenger (may God's prayers and peace be upon him and his family) a basis for dealing with With the prose text in the Abbasid era, there was no comprehensive academic study undertaken with the aim of revealing his image (may God's prayers and peace be upon him and his family), especially in the aspect of its display among the Abbasid rulers and their hidden methods of revealing the false truths through which they wanted to deceive society. The research was directed towards this aspect. A different approach in which what was hidden in their texts was proven. Therefore, this study came to clarify an aspect that many of

those who entered the field of Abbasid prose had long avoided, especially the sermons of the caliphs.

الكلمات المفتاحية

الرسول(ص) الخطب- النثر - العصر العباسي

المقدِّمة

الحمدُ للهِ السابقِ في كلِّ شيءٍ قضاؤه، الدائمِ بعد كل موجودٍ بقاؤه، النافِذِ في كلّ كائنٍ أمرُه، المحيطِ بكلِّ معلوم علمُهُ، وأُصلّي وأُسلّم على محمّد المحمود في المقرّبين الممدود بالملائكة الصالحين (صلّى الله عليه وآله الميامين وصحبه المنتجبين).

أما بعد..

تبوأ النثر في العصر العباسي مكانةً سامية؛ إذ بلغ مَبلغاً رفيعاً من الجودة والغزارة والتنوع حتى صار يُداني الشعر ويتفوق عليه ويسابقه في أغراضه وخصائصه، وصار يُعبّر عن نوازع الأُدباء الكُتاب في شتى المجالات بحكم طبيعته؛ كونه أكثر مرونة وطواعية في رسم الأفكار وتنوّعها والتعبير عن المعاني على اختلافها والتي قد لا يستطيع الشعر الوصول إليها أو التعبير عنها.

وفي هذه المُدة أصبح للنثر توجهات عديدة بحسب الحالة التي يكون عليها كلّ عصر من هذه المدة فقد برزت الخطب والرسائل أكثر من غيرها على الرغم من تواجدها قبل العصر العباسي والتوقيعات أيضاً كما برزت فنون نثرية جديدة لاسيما المقامات، وكانت هذه الفنون أو الأشكال النثريّة ومنها الخطب تحمل في طيّاتها روح العصر الذي ولدتْ فيه.

والعصر العباسي واحد من العصور الأدبيّة التي مُني فيها النثر والخطب بأهميّة خاصّة، مما دعاني إلى البحث في ذلك النثر عن صورة الرسول (صلّى الله عليه وآله)، واستكناه جوانبه المتنوعة وتتبع ظواهره بُغية الوقوف عند محطاته التي تضمنت تلك الصورة الشريفة، في حقبة مثّلت مرحلة نضوج النثر واكتماله، كونه انعطافة أدبية مهمة في تاريخ الأدب العربي، وعلى وفق هذه الرغبة سعتْ البحث إلى بناء مادَّة الدراسة على ثلاث محطّات، سَبقتها توطئة تكفّلت ببيان أهميّة النثر في ذلك العصر، ومن ثم محاور ثلاث اختص المحور الأول منه بتسليط الضوء على صورة الرسول (صلّى الله عليه وآله)، في خطب الأئمة(عليهم السلام)، أما المحور

الثاني فقصد صورة الرسول(صلّى الله عليه وآله)، في خطب الخلفاء، أما المحور الثالث فاختص بالكشف عن تلك الصورة في خطب الكُتاب ثمَّ خاتمة ضمّت أهمَّ ما توصَّل إليه البحث من استنتاجات، ثم ثبتٍ بأهم مصادر البحث ومراجعه.

توطئة:

شغلتْ الخطابة حيزا في حياة الناس لا سيّما مع بداية العصر الإسلامي وتوالتْ العصور وصولًا الى العصر العباسي؛ إذ كان للخلفاء الأولين ودعاتهم شأناً رفيعاً فيها كالمنصور والمهدي والرشيد وغيرهم.

ولا يمكن أنْ نقول أنَّ الموضوعات النثرية وليدة العصر العباسي بل أنَّ النثر أقدم من الشعر، إلاّ أنَّ النثر أخذَ بالتطور منذ بداية ظهوره وصولًا الى العصر العباسي، حتى أصبح النثر ثقافة متشعّبة، ومتعدد الفروع، وكان في بعض صوره امتدادًا للقديم، وظلّت فيه الخطابة مزدهرة حتى أوائل هذا العصر، أمّا الخطابة السياسيّة فظلت في فترة نشاط .

وعلينا حينئذٍ بيان دلالة تلك الصورة وسبب وجودها في هذا الموضع دون ذاك لتتحرك بذلك مشاعر المتلقي ويتأثر عاطفيًّا عندما يجد نصّا نثريًّا مثلا يبدأ بالسلام على النبي (صلّى الله عليه وآله)، وهو في مقام خطبة ونحن بدورنا نقف على صورة الرسول(صلّى الله عليه وآله)، التي أراد الكاتب إيصالها للتأثير في المتلقي، وليس التأثير في المتلقي مقتصرا على الشعر دونما النثر، فالصورة قد تكون في النثر أمتع وأكثر إثارة في المتلقي منها في الشعر، وسبب الانطباع الذي نشعر به أحيانًا من خلال نص من النصوص بما يعطيه وجوده الساطع من صور لا يعطيها غيره من النصوص[1].

أوّلًا: صورة الرسول (صلّى الله عليه وآله) في خطب أئمة أهل البيت (عليهم السلام).

إنّ الأئمة ولا سيّما من عاصر الدولة العبّاسيّة كما هو معروف جميعهم من ولد فاطمة بنت محمد سيدة نساء العالمين(عليهما السلام)، أي أنّهم من نسل بنت رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، وكان لكلٍّ منهم دوره الفعّال في قيادة الأمّة وإن كانوا مُحاربين من لَدُن السلطة الحاكمة، وكما هو معلوم أنّ الخطابة تحتاج إلى جمهور ومكان مناسب وهذه لا تكون إلّا بالعلن، فإذا كان الأئمة محاربون وتحت الإقامة الجبريّة وكل حركاتهم وسكناتهم مرصودة من قبل أعدائهم مما تعذّر وصول خطبهم إلينا، مثلما لم تصلنا خطب جدّهم الرسول (صلّى الله عليه وآله) جميعها، فما نلحظه في خطب الإمام وقد لا يقتصر الأمر على أحد الأئمة دون غيره لا

يقلّ أثرًا في إبراز صورة الرسول(صلّى الله عليه وآله) ومن ذلك الإمام أبي جعفر الصادق (عليه السلام) (ت148هـ)؛ **إذ يقول:((الحمدُ لله منعم النعم برحمته، والهادي لأفضاله بمنّه، وصلّى الله على خير خلقه الذي جمع فيه من الفضل ما فرّق في الرسل قبله وجعل تراثه الى من خصّه بخلافته وسلّم تسليما، ...))**[2]، أكّد لنا الإمام صورتين في هذا الجزء من الخطبة أولهما صورة الرسول(صلّى الله عليه وآله) الذي جمع فيه كلّ ما وجِد في الرسل والثانية صورة جعل تراثه الى من خصّه بالخلافة أي أنّ أصل الخلافة من بعده الى المعروفين من أهل بيته، الإمام علي والأئمة من بعده(عليهم السلام)، فحين وصفه بتلك الصفات كان (وهو سيّد البلغاء) من البلاغة والحكمة في إظهار تلك الصفات المتفردة المغزى. فهو(صلى الله عليه وآله وسلم) لا يشبهه أحد من الناس كافّة.

ومن هنا نجد أنّ الأئمة الهُداة(عليهم السلام)، كانوا حريصين على بيان صور جدّهم(صلّى الله عليه وآله)، بِعَدّهم الامتداد الحقيقي لنبوّته وخلفائه في أرض ربّه، **ومن ذلك قول الإمام الصادق(عليه السلام) في يوم فرحه وزواجه:((الحمدُ لله الذي بيده مقادير الأقدار،...، وأشهدُ أنّ محمدا عبده ورسوله، انتخبه رسولًا فنطق البرهان بتحقيق نبوته،...))**[3]، فقد أظهر لنا صورة الرسول(صلّى الله عليه وآله)، المنتخب من ربِّ العزة، الأمين على وحيه، المبرهن لرسالته، ألبسه لباس السؤدد، وأحاطه بسوار العظمة تحقيقًا لنبوته.

ومن ذلك ما نجده في خطبة أخرى للإمام الصادق(عليه السلام)؛ إذ يقول:**((... بشّرتْ به الأنبياء في كُتبها، ونطقتْ به العلماء بنعتها، وتأملتهُ الحُكماء بوصفها، مُهذب لايُداني، هاشمي لايوازي، ابطحي لايسامى شيمته الحياء، وطبيعته السخاء مجبولٌ على أوقار النبوة وأخلاقها، مطبوعٌ على أوصافِ الرسالة وأحلامها،...، لم يخلط في عنصره سفاح، ولم ينجسه في ولادته نكاح، من لدن آدم الى أبيه عبد الله خير فرقة، وأكرم سبط،...، اصطفاه الله وارتضاه واجتباه، وآتاه من العلم مفاتيحه ومن الحكم ينابيعه، وابتعثه رحمة للعباد، وربيعاً للبلاد،...، فبلّغ رسول الله صلى الله عليه وآله ما أرسل به، وصدع بما أمر به، وادى مما حمل من أثقال النبوة، وصبر لربه، وجاهد في سبيله، ونصح لأمته، ودعا الى النجاة، وحثهم على**

الذكر، ودلهم على سبيل الهدى ، بمناهج وداع أسّس للعباد أساسها، ومنازل رفع لهم أعلامها كيلا يضلوا من بعده وكان بهم رؤفاً رحيماً))[4].

وقولـه أيضـاً:((... **فرسول الله (صلى الله عليه وآلـه) الشهيد علينا بما بلغنا عن الله عزَّ وجل ونحن شُهداء على الناس، فمن صدق صدقناه يوم القيامة ومن كذب كذّبناه يوم القيامة...))**[5].

وهذه دلالة على أنّ تأكيد الأئمة (عليهم السلام) صورة الرسول محمد (صلّى الله عليه وآله) الشخصية، صورته كإنسانًا فاضلًا نبيلًا تواشجت فيه الصفات الكاملة حتى أثابه الله هذه المنزلة الرفيعة، فلم نجد في تصوّرهم عنه تلك الصورة السياسيّة التي وجدناها عند الخلفاء، بل كانت لأجل بيان صفات الرسول (صلّى الله عليه وآله) الخلقية ومبعثه وإتمامه لتلك المهمة الربانية، فأغنت خطبهم وكانت غاية في الجمال والوصف الناجع لشخصية الرسول(صلّى الله عليه وآله)، فلا شك في أنّ هنالك روابط تصويرية بين الأدب وعلم النفس ولو أردنا تطبيق هذا الكلام على هذه الصورة فإن((الكاتب حين يكتب عن شخصية في بعدها النفسي يضيف إليها من خبراته لإظهار ذلك البعد))[6]، وهذا النوع من التصوير كان دليلًا على تأثرهم بشخصيّة الرسول محمد (صلّى الله عليه وآله) الإنسانية في طبيعتها، الإلهية في وحيها وأثرها.

وما وقع بين أيدينا من خطب وجدت فيها صورة الرسول(صلّى الله عليه وآله)، خطبة الإمام الرضا(عليه السلام) (ت203هـ)؛ إذْ قال:((**الحمدُ لله الذي حمد في الكتاب نفسه وافتتح بالحمد كتابه،...، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، شهادة أهلها له وادخرها عنده،...، وصلى الله على محمد خاتم النبوة وخير البرية، وعلى آله آل الرحمة، وشجرة النعمة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة ...))**[7].

يبدو من النص السابق إنّ (خاتم النبوة) و(خير البرية) و(شجرة النعمة) و(معدن الرسالة) و(مختلف الملائكة) صور استقرّت في وجدان الإمام فيصفه بأنّه مثالًا إنسانيًّا يستحق تلك الرموز الروحانية التي تؤهله للاستعداد لحمل الرسالة السماوية كونه الدعامة التي قامت على أساسها الرسالة الإسلامية؛ إذ انماز بأنّه خاتم

الأنبياء وأنّه خير البريّة وشجرة النعمة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة أي أنّ الملائكة تختلف عليه صعودًا ونزولًا من السماء الى بيته فالصور هذه مجتمعة كفيلة بأن تعطي دلالة واضحة لشخصه.

وهنا يأتي دور المتلقي في تحصيل المعنى وهذا مرهون بمدى قرب المعنى من الأذهان، فالإمام(عليه السلام) رسم لنا الصورة وفقًا لثقافته التي تلقاها عن هذه الشخصية ومدى غنى مخزونه الثقافي وقدرته على توظيف الصورة توظيفا فاعلا، فغايتهم هي وصف الرسول(صلّى الله عليه وآله)، بما هو عليه من المنزلة والرفعة عند الله سبحانه وتعالى.

ويواصل الإمام الرضا(عليه السلام)، الوقوف عند صورة الرسول(صلّى الله عليه وآله)، متكئًا على كتاب الله تعالى بعدهما ينبعان من سراج واحد؛ إذ يقول:((**إنّ الله عزّ وجل لم يقبض نبيه**(صلّى الله عليه وآله)، **حتى أكمل له الدين وأنزل عليه القرآن فمنه تبيان كل شيء،...، فقال عزَّ وجل اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم إلاّسلام دينا ...**))[8]، وبذلك نلحظ إنّ الإمام اعتمد على استنباط صور مستوحاة من كلام الله عزّ وجل وقد نصّت الآية الكريمة في تصويرها للرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله) بـ (اتممت عليكم نعمتي) و(رضيت لكم إلاّسلام دينا) تلك الصور التي جعلت من الرسول (صلّى الله عليه وآله) المحقق لأسمى صور الهداية والصلاح بما أتمّه من رسالة ربه، وبما أنزل عليه من الوحي من الله تعالى بالقرآن وما نطق به من جوامع الكلم، وروائع الحكم تلك الصور جميعا أظهرها لنا الإمام بوضوح، وذلك محاولة منه لبيان الهدف الأساس الذي خرج من أجله الرسول(صلّى الله عليه وآله) وهو هداية البشرية.

ثانيًا: صورة الرسول (صلّى الله عليه وآله) في خطب الخلفاء

اعتنى الخلفاءُ العباسيون بخطبهم عنايةً خاصّة كونهم عَدّوها الواجهة الأساسية في تقديم صورتهم للناس، ولاسيّما صورتهم الدينية؛ لأنَّهم كانوا على ثقةٍ أنَّها مُقدّمةٌ الى كلِّ طبقات المجتمع العباسي، فكان لِزامًا عليهم أنْ يُقدموها بجودةٍ عاليةٍ حتى تُوحي لِسامِعها أوقارئِها بتمكّنِ صاحب الصناعة من التصوير الحسّي البديع.

حين تسنّم العباسيين الحُكم كانَ شُغلهم الشاغل إثبات أحقيتهم بالخلافةِ من خلال إقناع المجتمع بقرابتهم من الرسول(صلّى الله عليه وآله)، وكان ذلك يحتاج منهم جهداً في توجيه الناس صوبهم سواءً بالترغيب أم

بالترهيب ، فما كان منهم إلاّ أنْ يتعاملوا معهم بالحجج والأدلة التي توصلهم إلى برِّ الأمان وإنّ ماهم فيه من حكم وولاية هم أحق به من غيرهم؛ لذلك كانتْ خُطبهم حافلةً بهذا الاتجاه وبخاصة الخطب الدينية؛ كونها العنصر الأساس في جذب مسامع الناس، من ذلك خطبة أبي العباس السفاح (136هـ) عندما بُويع بالخلافة((**الحمدُ لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمةً،...، وخصّنا برحمِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته، وأنشأنا من آبائه، وأنبتنا من شجرته، واشتقَّنا من نبعته، جعلهُ من انفسنا عزيزاً عليه ماعَنتنا، حريصًا علينا، بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتابًا يُتلى عليهم، فقال عزَّ من قائل فيما أنزل من مُحكم القُرآن**چڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک کچ[9]، ...**وقال** چپ پ پ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿچ[10]،.. **فاعلمهم جلَّ ثناؤه فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفيء، والغنيمة نصيبنا، تكرمةً لنا، وفضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم**))[11].

إنّ ما جاء به الخليفة من صور للرسول (صلّى الله عليه وآله) في هذه الخطبة هو ما يُدركه عن هذه الشخصية بمكنوناتهِ الداخلية فهو في صراع بين الذات والموضوع؛ إذ ((يقوم الإدراك في هذا التصور على علاقة معقدة بين الذات والموضوع، فالذات تحدد المفاهيم وفق التصور الذي يرتسم في الذهن عن الحقائق الخارجية، وتجمع هذه المفاهيم بنسبة بعضها الى بعض لتصنع موقفا معرفيا))[12].

فمدح الحكام العباسيين لهذا النسب العريق هو في الوقت نفسه تعرّيضًا بغيرهم من غير العباسيين والمقصود الأمويين، فقد نجح السَّفاح في رسم صورة الرسول(صلّى الله عليه وآله)، بمقارنة ما جاء به الله عزَّ وجل على نبيِّه وما كان منهم أنْ يكونوا امتدادًا طبيعيّاً ربانيّاً للرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله) فالرسول إنسان، والإنسان اختاره الله ليكون خليفته في الأرض، ومنحهُ القدرة على ذلك، ولم يكتفِ بذكرها بل استحضرها في سياق يُفهم منه أنّ بني العباس هم ورثة الرسول (صلى الله عليه وآله)، وقد جاء الاقتباس القُرآني ليكون مكمِّلًا ملموسًا لما جاء به في اكتمال الصورة ودليلًا إقناعياً معززًا لمضمونها، فالآيات التي جاء بها توحي بقرابة السفاح من الرسول (صلّى الله عليه وآله) بجعلهم من أهل بيته كما يدعون. والذي يتمثَّل في أنَّ الله سبحانه وتعالى قد اختص نبيه محمد (صلّى الله عليه وآله)، ليكون نبيّاً للأمَّة، وبما أنّهم من نَسلِ الرسول (صلّى الله عليه وآله)،

وقرابته كما يَدّعون، إذًا هم مُختارون من قبل الله لتولّي الخلافة، وهم أحق بها من غيرهم، ويتبيَّن هنا جلياً بقول السفاح:(وخصّنا برحم رسول الله (صلّى الله‌عليه‌وآله)، وقرابته،...)، حتى بَلغ بهم الأمر الى توجيه الآيات القرآنية الكريمة بما يخدم قضيتهم في إثبات أحقيتهم الشرعية، والحاكم السفاح يريد أن يتلاعب بأفكار الناس ويسيطر على أذهانهم؛ لأنَّ هذه الآيات القرآنية كانت موجهةً في الأساس إلى أهل بيت الرسول(صلّى الله‌عليه وآله).

ويبدو أنَّ نظرية تولي السلطة قد ارتبطتْ في عهد العباسيين ارتباطاً وثيقاً بنظرية الحق الإلهي من جهة، ومبدأ القرابة من الرسول(صلّى الله‌عليه‌وآله)، وصلتهم به من جهة أُخرى؛ للإدعاء بأنّ الحاكم سلطان الله في أرضه، وليس للناس إلاّ الطاعة والخضوع التام لسياسته السلطوية وذلك؛ لأنّ الحاكم العباسي تبعاً لنظريتهم يحكم بتفويض من الله لا من الناس، وهو لا يخضع للرقابة أو المُساءلة أو المُحاسبة، أي أنّه لا يُسأل عمّا يفعل لكنّه يسأل غيره؛ إذ يستمد سلطته من الله تعالى الذي اختاره؛ ليمثّل الناس ويمارس سياسته السلطويّة، بإرادة الله ويعمل بقضائه، ومن هنا فقد أحاطوا سياستهم بهالة من العظمة والقداسة، وأسبغوا على أنفسهم كثيراً من الألقاب الدينية[13]، وهكذا روّضوا الناس لإثبات عظمتهم وقوتهم من جهة، وتحقيق مآربهم من جهة أخرى.

أما صورة الرسول الوصي المختار الناطق بعلم الله وحكمه مانجده في خطبة لأبي مسلم الخراساني[14]، (ت137هـ)؛ إذ يقول:((**الحمدُ لله الذي حمد نفسه، واختار الإسلام دينا لعباده، ثم أوصى إلى محمد رسول الله عليه وآله من ذلك ماأوصى، واختاره من خلقه، نفسه من أنفسهم، وبيته من بيوتهم، ثم أنزل عليه في كتابه الناطق الذي حفظه بعلمه، واشهد ملائكته على حقه، قوله ((إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل لبيت ويطهركم تطهيرا)) ...))**[15].

كشف لنا الخطيب صورًا متداخلة لشخصية الرسول (صلّى الله‌عليه‌وآله)، ومن ذلك قوله: (اختاره من خلقه) و(نفسه من أنفسهم) و(بيته من بيوتهم) و(ثم أنزل عليه في كتابه الناطق) وثم (أشهد ملائكته) تلك الصور المبيّنة لهوية الرسول(صلّى الله‌عليه‌وآله)، استحضر فيها صورة الرسول(صلّى الله‌عليه‌وآله) لدفع المتلقي للتأسي بمقامه، فضلًا عن استحضاره للعاطفة في مواضع متعددة؛ إذ كان بإلإمكان ذكر الرسول بما يميّزه عن

الناس إلاّ أنّ الأسلوب التصويري جاء بدقة يريد بيانه للمتلقي، ليكون تأثرهم بها أعمق وهي أقصى صور التواضع التي رسمت للرسول(صلّى الله عليه وآله).

وطبيعي أنْ يكون الشخص الداعي إلى منهج أمة بأسرها مختارا، وأصحابه ومن معه أيضا كانوا مختارين بعناية، فنلاحظ الصور السابقة جاء بها الكاتب لتبيان صورة الرسول(صلّى الله عليه وآله)، فالشخص الذي هيأ نفسه لأن يتحمل في سبيل رسالته كلِّ الصعوبات لا بدّ أن يكون وراءه فئة ناصرة تدعمه وتآزره تلك الفئة التي عرفها التاريخ عائلته وبعض أصدقائه، وهو إلى جانب إعداده إعدادا إلهيًا لمهمّة سماويّة كان له من الشخوص الذين ألهموه الشجاعة والصبر، وقوة التحمّل الذين ساروا معه على المنهاج الصحيح غير مبالين بمخاطر تلك المهمّة مؤمنين بما جاء به رسولهم.

ومن الخطب أيضًا خطبة الخليفة العباسي المهدي(169هـ)، قال فيها:((... **وأنّ محمداً عبده المصطفى ونبيه المجتبى، ورسوله بعد انقطاع الرجاء وطموس العلم واقتراب من الساعة الى أمّة جاهلة مختلفة، أميّة، أهل عداوة وتضاغن، وفرقة وتباين ... يبشر من أطاعه بالجنة وكريم ثوابها وينذر من عصاه بالنار وأليم عقابها**))[16].

تلك الصورة التي رسمتها ذهنية الخليفة العباسي القائل بالحق الناصر لنبيِّه الذي جاء على أمّة جاهلة تسودها الضلالة والبغضاء، بعد انقطاع الرجاء وطموس العلم، نلاحظه يلحق بصورة النبي(صلّى الله عليه وآله)، الأولى صورة ثانية هي التبشير بالجنّة لكلِّ من يتبعه، وهذا ما أراد الخليفة العباسي إيصاله للناس في الخطبة بأنّ اتباع الخليفة هو أمر قدسي لا يختلف كثيرا عن اتباعكم للرسول(صلّى الله عليه وآله)، فهو امتدادٌ له والإنذار بالعقاب والنار يؤكد صحة كلامنا، فكأنّما هو تهديد مَقيت مُبطّن لإنذار الناس بعد مخالفة أوامر الخليفة وإنّ ما كان يحذّركم الرسول(صلّى الله عليه وآله) منه أعيده على مسامعكم اليوم كي تأخذوا منه العبرة وتتعظوا .

ومن خطب الخلفاء التي ظهرت فيها صورة الخليفة التي هي امتداد لصورة الرسول (صلى الله عليه وآله) أيضًا خطبة هارون الرشيد(193هـ)، التي قال فيها ((... **وأشهد أن محمدًا عبده ورسُوله، بعثه على فترةٍ من الرُّسل ودروسٌ من العلمِ وإدبارٍ من الدنيا وإقبالٍ من الآخرة بشيرًا بالنعيم ونذيرًا بين يدي عذابٍ أليمٍ...**))[17].

فالخليفة أظهر لنا صور واضحة لمنزلة الرسول (صلّى الله عليه وآله) منها(بعثه على فترة من الرسل)، وهي مُقتبسة من قوله تعالى:ﭽ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ ﰛ ﰜ ﰝ ﰞ ﰟ ﰠ ﰡ ﰢ ﰣ ﰤ ﰥ ﰦ ﰧ ﰨ ﰩ ﰪ ﰫ ﰬ ﰭ ﰮ ﰯ ﰰ ﰱ ﰲ ﰳ ﰴ ﰵ ﰶ ﰷ ﰸ ﰹ ﰺ ﰻ ﰼ ﰽ ﰾ ﰿ ﱀ ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ ﱅ ﱆ ﱇ ﱈ ﱉ ﱊ ﱋ ﱌ ﱍ ﱎ ﱏ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ ﱡ ﱢ ﱣ ﱤ ﱥ ﱦ ﱧ ﱨ ﱩ ﱪ ﱫ ﱬ ﱭ ﱮ ﱯ ﱰ ﱱ ﱲ ﱳ ﱴ ﱵ ﱶ ﱷ ﱸ ﱹ ﱺ ﱻ ﱼ ﱽ ﱾ ﱿ ﲀ ﲁ ﲂ ﲃ ﲄ ﲅ ﲆ ﲇ ﲈ ﲉ ﲊ ﲋ ﲌ ﲍ ﲎ ﲏ ﲐ ﲑ ﲒ ﲓ ﲔ ﲕ ﲖ ﲗ ﲘ ﲙ ﲚ ﲛ ﲜ ﲝ ﲞ ﲟ ﲠ ﲡ ﲢ ﲣ ﲤ ﲥ ﲦ ﲧ ﲨ ﲩ ﲪ ﲫ ﲬ ﲭ ﲮ ﲯ ﲰ ﲱ ﲲ ﲳ ﲴ ﲵ ﲶ ﲷ ﲸ ﲹ ﲺ ﲻ ﲼ ﲽ ﲾ ﲿ ﳀ ﳁ ﳂ ﳃ ﳄ ﳅ ﳆ ﳇ ﳈ ﳉ ﳊ ﳋ ﳌ ﳍ ﳎ ﳏ ﳐ ﳑ ﳒ ﳓ ﳔ ﳕ ﳖ ﳗ ﳘ ﳙ ﳚ ﳛ ﳜ ﳝ ﳞ ﳟ ﳠ ﳡ ﳢ ﳣ ﳤ ﳥ ﳦ ﳧ ﳨ ﳩ ﳪ ﳫ ﳬ ﳭ ﳮ ﳯ ﳰ ﳱ ﳲ ﳳ ﳴ ﳵ ﳶ ﳷ ﳸ ﳹ ﳺ ﳻ ﳼ ﳽ ﳾ ﳿ ﴀ ﴁ ﴂ ﴃ ﴄ ﴅ ﴆ ﴇ ﴈ ﴉ ﴊ ﴋ ﴌ ﴍ ﴎ ﴏ ﴐ ﴑ ﴒ ﴓ ﴔ ﴕ ﴖ ﴗ ﴘ ﴙ ﴚ ﴛ ﴜ ﴝ ﴞ ﴟ ﴠ ﴡ ﴢ ﴣ ﴤ ﴥ ﴦ ﴧ ﴨ ﴩ ﴪ ﴫ ﴬ ﴭ ﴮ ﴯ ﴰ ﴱ ﴲ ﴳ ﴴ ﴵ ﴶ ﴷ ﴸ ﴹ ﴺ ﴻ ﴼ ﴽ ﴾ ﴿ ﵀ ﵁ ﵂ ﵃ ﵄ ﵅ ﵆ ﵇ ﵈ ﵉ ﵊ ﵋ ﵌ ﵍ ﵎ ﵏ ﵐ ﵑ ﵒ ﵓ ﵔ ﵕ ﵖ ﵗ ﵘ ﵙ ﵚ ﵛ ﵜ ﵝ ﵞ ﵟ ﵠ ﵡ ﵢ ﵣ ﵤ ﵥ ﵦ ﵧ ﵨ ﵩ ﵪ ﵫ ﵬ ﵭ ﵮ ﵯ ﵰ ﵱ ﵲ ﵳ ﵴ ﵵ ﵶ ﵷ ﵸ ﵹ ﵺ ﵻ ﵼ ﵽ ﵾ ﵿ ﶀ ﶁ ﶂ ﶃ ﶄ ﶅ ﶆ ﶇ ﶈ ﶉ ﶊ ﶋ ﶌ ﶍ ﶎ ﶏ ﶐ ﶑ ﶒ ﶓ ﶔ ﶕ ﶖ ﶗ ﶘ ﶙ ﶚ ﶛ ﶜ ﶝ ﶞ ﶟ ﶠ ﶡ ﶢ ﶣ ﶤ ﶥ ﶦ ﶧ ﶨ ﶩ ﶪ ﶫ ﶬ ﶭ ﶮ ﶯ ﶰ ﶱ ﶲ ﶳ ﶴ ﶵ ﶶ ﶷ ﶸ ﶹ ﶺ ﶻ ﶼ ﶽ ﶾ ﶿ ﷀ ﷁ ﷂ ﷃ ﷄ ﷅ ﷆ ﷇ ﷈ ﷉ ﷊ ﷋ ﷌ ﷍ ﷎ ﷏ ﷐ ﷑ ﷒ ﷓ ﷔ ﷕ ﷖ ﷗ ﷘ ﷙ ﷚ ﷛ ﷜ ﷝ ﷞ ﷟ ﷠ ﷡ ﷢ ﷣ ﷤ ﷥ ﷦ ﷧ ﷨ ﷩ ﷪ ﷫ ﷬ ﷭ ﷮ ﷯ ﷰ ﷱ ﷲ ﷳ ﷴ ﷵ ﷶ ﷷ ﷸ ﷹ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽ ﷾ ﷿ ﷻ[18]، فنجد صورة المبعث واضحة وكان بذلك آخر مابعث الله من الرسل والأنبياء وهذه حقيقة لا غبار عليها، أمّا الصورة الثانية فهي صورة مجيئه حين أدبرت الدنيا والمقصود ما كانت عليه الحياة آنذاك مستوحيًا تلك الصورة من قوله **ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ ﰛ ﰜ ﰝ ﰞ ﰟ ﰠ ﰡ ﰢ ﰣ ﰤ ﰥ ﰦ ﰧ ﰨ ﰩ ﰪ ﰫ ﰬ ﰭ ﰮ ﰯ ﰰ ﰱ ﰲ ﰳ ﰴ ﰵ ﰶ ﰷ ﰸ ﰹ ﰺ ﰻ ﰼ ﰽ ﰾ ﰿ ﱀ ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ ﱅ ﱆ ﱇ ﱈ ﱉ ﱊ ﱋ ﱌ ﱍ ﱎ ﱏ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ ﱡ ﱢ ﱣ ﱤ ﱥ ﱦ ﱧ ﱨ ﱩ ﱪ ﱫ ﱬ ﱭ ﱮ ﱯ ﱰ ﱱ ﱲ ﱳ ﱴ ﱵ ﱶ ﱷ ﱸ ﱹ ﱺ ﱻ ﱼ ﱽ ﱾ ﱿ ﲀ ﲁ ﲂ ﲃ ﲄ ﲅ ﲆ ﲇ ﲈ ﲉ ﲊ ﲋ ﲌ ﲍ ﲎ ﲏ ﲐ ﲑ ﲒ ﲓ ﲔ ﲕ ﲖ ﲗ ﲘ ﲙ ﲚ ﲛ ﲜ ﲝ ﲞ ﲟ ﲠ ﲡ ﲢ ﲣ ﲤ ﲥ ﲦ ﲧ ﲨ ﲩ ﲪ ﲫ ﲬ ﲭ ﲮ ﲯ ﲰ ﲱ ﲲ ﲳ ﲴ ﲵ ﲶ ﲷ ﲸ ﲹ ﲺ ﲻ ﲼ ﲽ ﲾ ﲿ ﳀ ﳁ ﳂ ﳃ ﳄ ﳅ ﳆ ﳇ ﳈ ﳉ ﳊ ﳋ ﳌ ﳍ ﳎ ﳏ ﳐ ﳑ ﳒ ﳓ ﳔ ﳕ ﳖ ﳗ ﳘ ﳙ ﳚ ﳛ ﳜ ﳝ ﳞ ﳟ ﳠ ﳡ ﳢ ﳣ ﳤ ﳥ ﳦ ﳧ ﳨ ﳩ ﳪ ﳫ ﳬ ﳭ ﳮ ﳯ ﳰ ﳱ ﳲ ﳳ ﳴ ﳵ ﳶ ﳷ ﳸ ﳹ ﳺ ﳻ ﳼ ﳽ ﳾ ﳿ ﴀ ﴁ ﴂ ﴃ ﴄ ﴅ ﴆ ﴇ ﴈ ﴉ ﴊ ﴋ ﴌ ﴍ ﴎ ﴏ ﴐ ﴑ ﴒ ﴓ ﴔ ﴕ ﴖ ﴗ ﴘ ﴙ ﴚ ﴛ ﴜ ﴝ ﴞ ﴟ ﴠ ﴡ ﴢ ﴣ ﴤ ﴥ ﴦ ﴧ ﴨ ﴩ ﴪ ﴫ ﴬ ﴭ ﴮ ﴯ ﴰ ﴱ ﴲ ﴳ ﴴ ﴵ ﴶ ﴷ ﴸ ﴹ ﴺ ﴻ ﴼ ﴽ ﴾ ﴿ ﵀ ﵁ ﵂ ﵃ ﵄ ﵅ ﵆ ﵇ ﵈ ﵉ ﵊ ﵋ ﵌ ﵍ ﵎ ﵏ ﵐ ﵑ ﵒ ﵓ ﵔ ﵕ ﵖ ﵗ ﵘ ﵙ ﵚ ﵛ ﵜ ﵝ ﵞ ﵟ ﵠ ﵡ ﵢ ﵣ ﵤ ﵥ ﵦ ﵧ ﵨ ﵩ ﵪ ﵫ ﵬ ﵭ ﵮ ﵯ ﵰ ﵱ ﵲ ﵳ ﵴ ﵵ ﵶ ﵷ ﵸ ﵹ ﵺ ﵻ ﵼ ﵽ ﵾ ﵿ ﶀ ﶁ ﶂ ﶃ ﶄ ﶅ ﶆ ﶇ ﶈ ﶉ ﶊ ﶋ ﶌ ﶍ ﶎ ﶏ ﶐ ﶑ ﶒ ﶓ ﶔ ﶕ ﶖ ﶗ ﶘ ﶙ ﶚ ﶛ ﶜ ﶝ ﶞ ﶟ ﶠ ﶡ ﶢ ﶣ ﶤ ﶥ ﶦ ﶧ ﶨ ﶩ ﶪ ﶫ ﶬ ﶭ ﶮ ﶯ ﶰ ﶱ ﶲ ﶳ ﶴ ﶵ ﶶ ﶷ ﶸ ﶹ ﶺ ﶻ ﶼ ﶽ ﶾ ﶿ ﷀ ﷁ ﷂ ﷃ ﷄ ﷅ ﷆ ﷇ ﷈ ﷉ ﷊ ﷋ ﷌ ﷍ ﷎ ﷏ ﷐ ﷑ ﷒ ﷓ ﷔ ﷕ ﷖ ﷗ ﷘ ﷙ ﷚ ﷛ ﷜ ﷝ ﷞ ﷟ ﷠ ﷡ ﷢ ﷣ ﷤ ﷥ ﷦ ﷧ ﷨ ﷩ ﷪ ﷫ ﷬ ﷭ ﷮ ﷯ ﷰ ﷱ ﷲ ﷳ ﷴ ﷵ ﷶ ﷷ ﷸ ﷹ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽ ﷾ ﷿ ﷻ**[19].

فتأكيد الحكّام على الاستشهاد بالقرآن الكريم؛ لأنّهم وجدوا فيه إقامة الحجّة، وقطع النزاع، وإذعان الخصم، وقد تقوم الآية الواحدة المُستشهد بها في بلوغ الغرض، مالا تؤديه الكتب المُطوَّلة، والأدلة القاطعة، وتمثّل الاقتباس بألفاظ من القُرآن حيث يستشهد الخطيب بآية قُرآنية مُشيراً إليها وهو أقلهما وقوعاً في الكلام، ودورنا في الاستعمال، وهو أن يتضمّن الكلام من القُرآن، وينبّه عليه[20].

فقد أكد أنَّ الرسول (صلّى الله عليه وآله)، جاء بعد فترة من إرسال عيسى بن مريم (عليه السلام)؛ ليكونَ قد بلَّغ رسالة ربه، فقد استحضر صورته (صلّى الله عليه وآله)، المُبلّغ كما الخليفة المُبلّغ الذي جاء بعد مدّة من العصر الإسلامي وكأنّه ينفي وجود الحُكم الأموي بهذه الصورة وكان العدل والحق قد انقطع بقوله بعد فترة وكانت الأمّة من وجهة نظره قد أقبل عليها يوم الآخرة في حكم الأمويين حتى جاء العباسيون المنقذون المكمّلون لمسيرة بني العباس على حدٍّ زعمهم.

ولم تتوقف رسم تلك الصور عند حاكم واحد بل تعددت حتى نجدها عند المنصور (ت137هـ) في عيد الفطر؛ إذ يقول:((**بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي أحسن إلينا في قضائه،...، وأشهد أنّ محمدا رسول الله عبده ورسوله، اصطفاه لوحيه واختاره لتبليغ رسالته، فاتبعه داعيًا الى الحقِّ وشاهدا على الخلقِ، فبلَّغ رسالة ربه، ونصحَ لعباده، وجاهد في سبيله، صلاة الله عليه نبياً مصطفى، ورسولًا مرتضى، وعلى آله...**))[21]

نلحظ في النصّ المتقدّم أنّ صورة الرسول(صلّى الله عليه وآله)، جاءت مثالًا للمنهج الإسلامي الصحيح، فقد جاء الأنبياء عموما لهداية الأمم الى النور وثباتها على الصواب؛ إذ أنَّ الوظيفة التي كُلفوا بها هي وظيفة إنسانية دينية غايتها رشاد المجتمع، فضلاً عن جعل هذه الهداية من الأمة مقرونة بطاعة رسولهم (صلّى الله عليه وآله)، فكان لبيان تلك الصورة التي لا يمكن أن تتكوّن من غير مصدر خارجي، هي نتيجة لإعمال الفكر مع الانطباعات أوالتأثيرات المتعلقة بثقافة الكاتب وطرحها الى ذوق وثقافة المتلقي[22].

فما كان من الخليفة إلاّ أنْ يظهر ما لديه من ثقافة ومعرفة تجاه الشخص الذي يستحق أن يصطفيه الله على خلقه، ويأتمنه على رسالته، لذا فالمنصور على قدر من الذكاء حين عبّر عن الرسول (صلّى الله عليه وآله)، بهذه الصور التي تنطبق على الحاكم الداعي لرسالة ربِّه وقد أدّى ذلك الى تجلِّي صورة الرسول (صلّى الله عليه وآله)، المثالية في الخليفة العباسي، وإزالة الشبهات عنه.

كما يطالعنا الأمين(ت198هـ) بصورة أخرى في أحدى خطبه: ((... **وأن محمداً عبده الأمين، ورسوله الى المسلمين** (صلّى الله عليه وآله)،...))[23]، إذ نلحظ قصديّة الخليفة ومراده من خلال ربطه كلمة (الأمين) بشخص الرسول(صلّى الله عليه وآله)، وعظمته، بشخص الخليفة، حيث جاء بهذا الترتيب في المعنى كنوع من التناغم والترابط في صورة الشخصيتين.

فيما نجد المأمون حينما ورده نعي الرشيد (218هـ)؛ إذ يقول:((... **وقد أتى على خليفتكم ما أتى على نبيكم (صلّى الله عليه وآله)، فإنّا لله وانّا اليه راجعون، فما كان إلاّ عبدا دعا فاجاب، وأمر فأطاع ...**))[24]، فقد أبانت هذه الخطبة عن الصورة الواضحة المطبوعة في أذهان الحُكّام عمومًا وهذا الحاكم خصوصًا بقوله:(ما أتى على خليفتكم أتى على نبيّكم)، تلك الصورة الذهنيّة التي دفعت الخلفاء الى تَبَّني أمر الخلافة لا بدَّ منه وإنَّ ما يحدث لهم حدث لنبيّهم من قبلِ وهذه صورة واضحة أراد حكام الدولة إبرازها للعلن ليكسبوا وِدَّ الناس ويجعلوهم إلى صفّهم بحجّة الدين والقرب من الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله) مرهون بإطاعتهم.

وبذلك إنّ نظرنا إلى صورة الرسول (صلّى الله عليه وآله)، نجدها تدور حول جانبين أولهما الجانب السياسي المتمثل بقيادة الرسول(صلّى الله عليه وآله)، لهذه الأمّة التي أتاها من بعد تِيه وضلال محاولًا هدايتها الى الطريق القويم، والآخر الجانب الديني الشرعي المتمثل بقيادة بني العباس الذين يرَون بأنَّ الله اصطفاهم دون غيرهم وأنَّ وصولهم إلى الحكم هو نتاج قوتهم، وهيمنتهم وسيوفهم التي حاربوا بها أعداءهم من الأمويين وغيرهم وهم امتداد طبيعيّ للرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله) كونهم أولاد عمه.

أما الجانب الذي لم نعثر عليه عند الخلفاء في صورة الرسول محمد (صلّى الله عليه وآله)، فهو الجانب الوجداني المتمثِّل بشخص الرسول(صلّى الله عليه وآله)، وكيف توفرت به جميع المقومات حتى تكفّله الله بعنايته وكرّمه بأنْ يكون من أنبيائه، مثلما وجدنا ذلك وسنجده عند الأئمة و عند عامّة الكُتّاب، وعليه فالحُكام العبّاسيين كالحكام الأمويين جاءوا بصورة الرسول (صلى الله عليه وآله) لتخدم مصالحهم وتُثبّت أركان حكمهم وشرعيته الإلهية، في الرد على الخصوم، وإقناع الجمهور إنّهم الأقدر والأكفأ على قيادة الأمة من غيرهم ، وهم بذلك يأخذون ما يطمحون إليه وما يُلائم سياستهم ويخدم تطلعاتهم أمام الجمهور، بشكلٍ جلي وكان ذلك تماشيا مع الجو العام الذي ساد فيه الخطاب الإقناعي آنذاك. كون العباسيين سعوا إلى تثبيت غرسهم بشتى الطرق، لذلك عمدوا إلى إيراد الصور القادرة على جذب المتلقي قاصدين التهويل مرة، والإقناع مرّة أخرى.

ثالثاً: صورة الرسول (صلّى الله عليه وآله) في خطب الكُتّاب:

شهِد العصر العباسي تطورًا للعقول المبدعة والميول التي ظهرت على يد الكُتّاب وألسنتهم، هذا يعني أنّ النثر تطور تطوراً ملحوظاً حتى أصبح مرآة العصر يتأتى بما ينال المدارك والمشاعر من عوامل الحضارة ونتائج العلم، قادرًا على الإفصاح عن أدق المعاني، هذا ماساعد كُتاب العصر على الإبداع في الخطب التي أصبح لها ألوان عدّة بحسب المواقف والأشخاص والموضوعات.

ومن مصاديق ذلك خطبة محمد بن سليمان بن علي الهاشمي[25](173هـ)، عندما خطب يوم الجمعة؛ إذ قال:((... **واشهدُ أنَّ محمدًا عبده ورسُوله، أرسَله بالهدى ودين الحق، ليُظهره على الدينِ كُله ولو كَرِه المُشركون، من يَعتصم باالله ورسوله، فقد اعتصمَ بالعروةِ الوثقى، وسَعِد في الأولى والآخرة، ومن يَعصِ الله ورسُوله فَقد ضلّ ضلالًا بعيدا، وخسر خسرانًا مبينًا...**))[26].

نلمح في هذه الخطبة تجلّي صورة الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله)، فهو المرسل لهداية الناس بالهدى ودين الحق والمقاوم لأهواء الكفر والشرك، فلولا إرادة الله تعالى بإرسال رسوله لما انجلت ظلمات الضلالة، ولا انكشفت حجب الباطل، وعرف الناس الحق، وقد أيّد ذلك المضمون التعبير القرآني في اقتباس الكاتب الإشاري للآية القرآنيّة :چ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ چ[27]، فيمنح بذلك النص قوةً في التأثير، أبان عن صورة الرسول(صلّى الله عليه وآله)، الذي اصطفاه الله تعالى لهداية الناس بما أنزل عليه من وحيه، فلولا رسول الله لم تنجلِ ظلمات الضلالة ولا انكشفت حجب الباطل فقد اثبت الهدى ووطده وعرّف الناس الحق ومقاصده فأنقذ الناس من الغواية بدعوتهم إلى الهداية، وإرشادهم إليها.

كما أنَّ صور الرسول الخاتم للنبيين، المبعوث رحمة للعالمين(صلّى الله عليه وآله)، قد وجدت مواطنها في خطبة داود بن عيسى[28]، يدعو إلى خلع الأمين(656هـ)؛ إذ قال فيها ((**الحمدُ لله مالك الملك، يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير، وأشهد أنّ لا إله إلاّ الله وأنّ محمدًا رسول الله أرسله بالدين، وختم به النبيين، وجعله رحمة للعالمين، صلى الله عليه في الأولين والآخرين ...**))[29]، وهذه الصور على تكرارها أثبتت أثرها وحضورها في النص، ومن ذلك (أرسله بالدين) و(ختم به النبيين) و(جعله رحمة للعالمين)، فقد نُقلت لنا الصورة نقلًا صادقًا وهي أقوى الوسائل التعبيريّة عن الفكر والشعور الصادق والمؤثر.

ويصورُ الكاتب محمد بن عبد المُحسن المشهور بـ (ابن الرفاء)[30] (ت362هـ)، الرسول(صلّى الله عليه وآله)، بوصفه رييب العناية الإلهية الذي بعثه بالحق ناطقًا باسمه؛ إذ يقول:((... **الحمد لله الذي خلق من الماء بشرا، فجعله نسبا وصهرا... وأشهد أنّ لا إله إلاّ الله شهادة أعدّها للمعاد ذخرا، وأشهدُ أنّ محمدًا عبده ورسوله المبعوث الى العالم طُرا... صلى الله عليه وعلى آله وصحبته صلاةً هم بها أحق وأحرى ..**))[31].

لعلّ وقوف المتلقي وتأمله لتحصيل المعنى، مرهون بمدى قرب هذا المعنى من الأذهان، فإذا كان سهلًا وواضحًا لا يستدعي التوقف أمامه وإعمال الفكر لتبين غاية الفكر من تصويره[32]، فالصورة التي نقلها لنا ابن الرفاء واضحة كون المتلقين لها جماعة محدودون قد تزيد أو تنقص ثقافتهم عنه فتبعًا للمقام كان مقال صاحبها، فقد أراد كاتبها بيان مكانة الرسول (صلّى الله عليه وآله)؛ إذ شكلت صورة ناصعة بإشارته (المبعوث إلى العالم طرا)، من اللين والبساطة والتواضع تلك صورة الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله) فقد تطلّب الموقف من الكاتب أن يُبين تلك الصورة كونه في محفل زواج؛ إذ غالبًا ما يوصى الزوج في تلك اللحظات بأن يكون ليّنا مع زوجته فقد اختصر الكاتب الكلام بتلك الصورة فكانت عملية النقل هذه تقتضي توظيف الألفاظ في سياق تعبيري متين وجذاب، قادرًا على التأثير في ذهن المتلقي، وتمكين المقاصد في نفسه[33]، فالهدف من تلك الصورة هو إرشاد المتلقي الى حقيقة الرسول محمد (صلّى الله عليه وآله).

❖ **نتائج البحث:**

❖ أبان البحث عن صورة الرسول(صلّى الله عليه وآله)، بأنها لم تخلُ من تفاوتٍ ملحوظ بين الخليفة والإمام والكاتب وغيرهم، ونتيجة لتعدد الشخصيات تعددتْ على إثرها زوايا النظر في الصورة وإنْ كانتْ المعاني والأفكار المطروحة في الصورة متقاربة على اختلاف قائليها، فمقصدية الخليفة كانتْ تختلف تمامًا عن مقصدية الإمام وعن مقصدية الكُتاب الآخرين.

❖ كشف البحث عن طبيعة صورة الرسول عند الأئمة (عليهم السلام)، مقارنة بإيرادها في خطب الخلفاء ومن والاهم من الكتّاب، فقد تناولوا الصورة بنحو مغاير تمامًا؛ إذ مالوا فيها الى إظهار الرسول(صلّى الله عليه وآله)، بعدّه رسولا ونبيّا وهاديًا للبشرية جمعاء، فهم على صلة بالدم والنفس بالرسول(صلّى الله

عليه‌وآله)، تأسوا به في فرحهم وحزنهم، ووصفوه حقّ وصفه لا لغاية أوسلطة سوى أنهم امتداده الطبيعي وتركته في أمته، يفخرون به، ويفاخرون الآخرين بفضله، فهو الذي جُمع فيه كلّ ما وُجِد في الرسل.

- ❖ أبان البحث عن مآلاتِ الخلفاء العباسيين مُنذُ تَسنّمهم الخلافة فقد أسبغوا عليها هالة من القداسة تتصدرها صورة الرسول محمد (صلّى الله‌عليه‌وآله)، إذ تتضمن صورة الرسول الحاكم، الرسول المرسل الى أمّة الجهل والضلال وهم من بعده متسنمين هذه الخلافة وهم الأحق بذلك حسب زعمهم، تلك الصورة التي حاولوا زرعها في أذهان الأمة الاسلاميّة مثلما توهموا زرعها في أذهانهم.
- ❖ توصّل البحث إلى أنّ صورة الكتاب قريبة من صور الأئمة وذلك لخلوها من المصالح وعدم استغلالها لمآربهم الشخصيّة فمجالها غير سياسي.

هوامش البحث:

1. ينظر: الاسلوبية، جورج مولينيه:87.
2. دلائل الإمامة، أبو جعفر محمد بن رستم:207.
3. المصدر نفسه:177.
4. أشعة من بلاغة الإمام الصادق(عليه السلام):22،21.
5. المصدر نفسه:29.
6. ينظر: الدراسة النفسية للأدب، النقائض، والاحتمالات والإنجازات: 71–72.
7. فروع الكافي، محمد بن يعقوب الكليني:5/ 373.
8. عيون أخبار الرضا، الشيخ الصدوق:436/1، وينظر: فروع الكافي، الكليني: 198/1.
9. سورة الأحزاب، الآية:33.
10. سورة الشّورى، الآية:23.
11. جمهرة خطب العرب: 3/ 7.
12. الصورة الذهنية في تصور المعنى، بحث مستل:133.
13. يُنظر: الطاغية، دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي: 187.
14. أبو مسلم الخراساني: عبد الرحمن بن مسلم، صاحب الدعوة وهازم جيوش الدولة الأمويّة، والقائم بإنشاء الدولة العباسية توفي(137هـ)، ينظر: سير أعلام النُبلاء: 48.
15. جمهرة خطب العرب:3/ 20.

16. العقد الفريد: 190/4.
17. جمهرة خطب العرب:54/3.
18. سورة المائدة، الآية:19.
19. سورة المائدة، الآية:15.
20. الخطابة في العصر العباسي الأول:110.
21. تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب (عيون الأخبار): 149.
22. الصورة الذهنية في تصور المعنى، سمير أحمد معلوف: 137.
23. جمهرة خطب العرب: 117/3.
24. المصدر نفسه:120.
25. محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي، أخو جعفر وإسحاق، كان أعظم أهله، وجليل رهطه، وولي إمارة البصرة في عهد المهدي، ثم قدم بغداد وعلى الرشيد لما اقتضت إليه الخلافة (122–173هـ)، يُنظر : سير أعلام النبلاء:241/16.
26. جمهرة خطب العرب:3/ 54.
27. سورة التوبة، الآية: 33.
28. داود بن عيسى الأيوبي (603– 656هـ)، السلطان الملك الزاهر صلاح الدين أبو المفاخر داود ابن السلطان الملك المعظم عيسى بن العادل، فقيهاً حنفياً ذكياً، شاعراً بديع النظم: ينظر سير اعلام النبلاء: 376–377.
29. جمهرة خطب العرب: 116/4.
30. محمد بن عبد المحسن (الرفاء): أبو الحسين السرّيُّ بن أحمد الكندي الموصلي مدح سيف الدولة، وببغداد المهلبي، مات سنة نيف وستين وثلاثمائة ببغداد، ينظر: سير أعلام النُبلاء:217/16.
31. صبح الأعشى في نهاية الإنشاء:114/14.
32. ينظر: بنية الصورة في الشعر العربي الحديث، بحث:25.
33. ينظر: المصدر نفسه:26.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1) الاسلوبية، جورج مولينيه، تح د. بسام بركة، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع بيروت – لبنان، ط2 ،2006م.

2) أشعة من بلاغة الإمام الصادق(عليه السلام)،(خطب، رسائل، مواعظ)، عبد الرسول الواعظي، مطبعة الآداب، النجف، 1963م.
3) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، احمد زكي، المكتبة العلمية بيروت لبنان،(د.ت).
4) الدراسة النفسية للأدب، النقائض، والاحتمالات، والانجازات: مارتن ليندواور، ترجمة: د. شاكر عبد الحميد،1974م.
5) دلائل الإمامة، لأبي جعفر محمد بن رستم الطبري، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف،1949م.
6) سير أعلام النُبلاء شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق ،سعيد الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط11، 1996م.
7) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي القلقشندي (ت821هـ) ، تحقيق د. علي يوسف الطويل، دار الفكر ،دمشق، ط1، 1987م.
8) الطاغية، دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي، إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافيّة شهريّة، المجلس الوطني للثقافة والآداب– الكويت(د.ت).
9) العقد الفريد، ابن عبد ربه ، تح ، محمد قميحة دار الكتب العلمية ط1، 1983م.
10) عيون أخبار الرضا، الشيخ الصدوق، الشيخ حسين الأعلمي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ط1 ،1983م.
11) فروع الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، تح، علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، ط3، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت– لبنان.

- **الدوريات والبحوث:**

12) بنية الصورة في الشعر العربي الحديث، بحث، مجلة أوراق ثقافية، السنة الأولى، العدد الأول ،2019م.
13) الخطابة العربية في العصر العباسي الأوّل، حسين اللهيبي، جامعة الكوفة، مجلة القادسية/ كليّة الآداب، العددان(3–4) المجلد(7)، 2008م.
14) الصورة الذهنية في تصور المعنى، بحث مستل، د. سمير أحمد معلوف، مجلة جامعة دمشق ، مجلد 26، العدد الأوّل والثاني،2010م.